الشيخ الصالح بن مهنا وكتابه "رسالة لطيفة تسمى إظهار الحق في الأجوبة التي أجبت بها الدولة الفرنسوية"

أ. منى صالحي*

الملخص:

تواجه الباحث في تاريخ الجزائر الثقافي والفكري في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين صعوبة قلة المصادر، فإن توفرت المصادر الفرنسية فهي تعبر عن وجهة نظر الاستعمار، ولا تعطينا فكرة واضحة عن الواقع الاجتماعي والثقافي والفكري للجزائريين ولا عن رد فعلهم تجاه السياسة الاستعمارية.

ورغم أن هذه الفترة عرفت بداية النهضة العربية الإسلامية والحركات الإصلاحية في المشرق الإسلامي وبداية تأثيراتها في الجزائر، فإن المصادر الجزائرية للفترة مازالت نادرة أو مفقودة، ولعل أبرز مثال على ذلك هو كتابات الشيخ الصالح بن مهنا القسنطيني، فقد كتب مالا يقل عن ثلاثين مؤلفا كما ذكر ذلك في هامش رحلة الورثلاني . لكن عدد كبير من هذه الكتب مفقود أو نادر لم يعد نشره، ومنها الرسالة التي كتبها في الرد على أسئلة السلطات الفرنسية، سماها: "رسالة لطيفة تسمى إظهار الحق في الأجوبة التي أجبت بها الدولة الفرنسوية" وسنتناول في مقالنا هذا هذه الرسالة وأسباب كتابتها، ومن خلالها سنستشف بعض الجوانب الثقافية والفكرية بالجزائر بصفة عامة وبقسنطية بصفة خاصة، فهذه المدينة عرفت في الفترة نوع من الحراك الفكري والاصلاحي كان من أعمدته الشيخ الصالح بن مهنا والشيخ عبد القادر المجاوي ... وغيرهما.

* – أستاذة بقسم التاريخ، جامعة المسيلة، الجزائر.

وقد تعرض ابن مهنا في خطبه وكتاباته لقضايا عصره وأغلبها قضايا دينية تعالج الانحراف عن الشريعة الإسلامية، ونبذ الخرافات والعقائد الفاسدة، وقد كان لكلمته الحارة التي أطلقها دوي وصدى لدى تلاميذه ولدى أعدائه، وهذا ما أزعج السلطات الفرنسية، يقول عنه مالك بن نبي:"إنه من الواجب علينا أن ننوه ببعض ما كان من أمر مناجاة الشيخ (صالح بن مهنا) الضميري-إن صح التعبير-فإن صوت مناجاته كاد يوقظ أهل قسنطينة كلها حوالي سنة 1898".

Abstract :
The researcher in cultural and intellectual history of Algeria in the late nineteenth and early twentieth century, faces a lack of resources. Since the available French sources represent the views of colonialism, and do not give a clear idea of the social, cultural and intellectual reality of Algerians or their reaction to the colonial policy. Although this period known as the early movements of the Arab Islamic Renaissance reform in the Muslim East and the beginning of their effects in Algeria, Algerian sources for this period are rare or lost. The most striking example are the writings of Sheikh Saleh bin Mehanna Constantine. He wrote at least thirty books, as it was mentioned in the book 'journey of Alwarthalani'. But many of these books has been lost or has not been republished. Among these books, a booklet containing the letter written in response to questions by the French authorities, he headlined "Letter pleasant named emergence of truth in the responses to the French state", We will discuss this letter in our article, and the reasons that push its writing. We deduce some of the cultural and intellectual.

مقدمة:

أثناء بحثي عن مؤلفات الصالح بن مهنا القسنطيني وجدت كتيبا من أربعين صفحة، مكتوب عليه:"**رسالة لطيفة تسمى إظهار الحق في الأجوبة التي أجبت بها الدولة الفرنسوية**" لمؤلفها الشيخ الصالح بن مهنا الأزهري تلميذ الولي الصالح عبد الله

الدراجي رحمه الله. منشورة في سنة 1904. وقد شد انتباهي الجزء الأخير من العنوان فلأول مرة أجد أحد الجزائريين ينشر إجاباته على أسئلة الإدارة الفرنسية، فلماذا طلبت السلطات الفرنسية من الشيخ ابن مهنا الإجابة على الأسئلة، مامدى أهمية الأسئلة والإجابة؟ خاصة أن الرسالة لها مقدمة قصيرة جدا في سطرين فقط فيها عنوان الرسالة وطلب العون من الله تعالى، ولا يوجد تعريف بها. رجعت إلى سليمان الصيد الذي خص صالح بن مهنا بمؤلف صغير فلم أجد إلا عنوان هذه الرسالة واكتفى بنقل الفقرة الأولى والفقرة الأخيرة من الرسالة دون تعريف بها أو تعليق عليها، ورجعت إلى تاريخ الجزائر الثقافي لأبي القاسم سعد الله فوجدته يقول أنه لم يطلع على هذا الكتاب وأن الصالح بن مهنا شخصية إصلاحية تحتاج إلى دراسات أوسع من كتاب سليمان الصيد.

والواقع أن هذه الرسالة هي إحدى الردود الكثيرة التي أجاب بها الشيخ بن مهنا على معارضي آرائه داخل الجزائر وخارجها، وأيضا السلطات الفرنسية، وكان ذلك في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. وقبل التعريف بالكتيب أرى من الضروري معرفة بعض جوانب حياة الشيخ الصالح بن مهنا بما يساعدنا على فهم الرسالة التي نرغب في تقديمها.

ذكر الورثلاني في رحلته أنه اجتمع بداره في إحدى الليالي بـ"سيدي أحمد الطيب مع أخينا في الله سيدي أحمد بن حمود وسيدي مهنا وكلهم ذوو فضل وعلم..." فكتب الصالح بن مهنا في هامش الرحلة:" قوله (مهنا) هو من أسلافنا، ولنا أسلاف "بالمشرق، بـ"المدينة المنورة" أشراف وأمراء على المدينة، ذكرهم ابن خلدون في تاريخه، ولنا أسلاف بالشام ذكرهم أبو الفدا في تاريخه، وابن الوردي في تاريخه..."[1]. فالراجح أن قبيلة ابن مهنا من القل، ولا يعرف الباحثون كثيرا عن نشأة الصالح بن مهنا ولا ندري هل ولد في القل أم في قسنطينة، وحتى تاريخ ميلاده غير معروف بدقة

فقد سجل في الحالة المدنية بقسنطينة في سنة 1889 أنه ولد في سنة 1854 ويرجح سليمان الصيد ميلاده أن يكون في سنة 1840 [2].

درس في قسنطينة ثم في تونس حيث أخذ عن علماء مشهورين مثل الشيخ الصالح النيفر والشيخ عبد الله الدراجي الذي التقى به في تونس وتأثر به كثيرا، ولا يذكر من شيوخه الجزائريين غير هذا الشيخ، وخصه بتأليف "إسعاف الراجي في بعض مآثر الشيخ الدراجي". ومن شيوخه بمصر شيخ الإسلام مصطفى العروسي، وشيخ الأزهر محمد بن أحمد عليش الطرابلسي[3]، تأثر به كثيرا وكان ينسب نفسه إليه في بعض كتبه فيقول "الصالح بن مهنا العليشي". عاد إلى قسنطينة وبقي بها إلى أن توفي في سنة 1911.

إذا عاد فعلا إلى الجزائر في سنة 1887 كما يذكر سليمان الصيد وبعد أن تتلمذ على يد الشيخ عليش المتوفى في سنة 1882، فقد عاش في فترة حرجة من تاريخ مصر والمشرق العربي، فقد عاصر أحداث الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزي لمصر كما عاصر نشاط الأفغاني والحركة الإصلاحية في المشرق وكثير من الأحداث التي وجهت تفكيره.

عاد إلى الجزائر وأقام في البداية بزاوية بوحجر قرب سيقوس (قرب عين البيضاء) ثم انتقل إلى قسنطينة حيث تولى إمامة المسجد الكبير، بقسنطينة وبسعي من الشيخ محمود الشاذلي والذي كان مديرا للتعليم المزدوج بقسنطينة. كما كانت للشيخ ابن مهنا دروسا في الزاوية الحنصالية (الرصيف حاليا)[4]. بالإضافة إلى دروسه ألف الكثير من الكتب والتي يظهر فيها اتجاهه الإصلاحي، حيث أنها تجمع بين الحديث عن التصوف وتحرير العقل[5]. ومن أهم مؤلفاته حاشيته على رحلة الورثلاني يقول عنها:"لما ألفت حاشية الرحلة وهي تمام ثلاثين تأليفا وتكلمت فيها عن ثلاثة عشر علما ونقلت فيها من مائة كتاب من كتب الأئمة المشهورة المتداولة بين العلماء

والمطبوعة..."[6]. أظهر فيها أفكاره الإصلاحية وحملته على الدراويش وأدعياء النسب الشريف وجور الحكام، فأوقعت ردود فعل استفادت منها الإدارة الفرنسية، لضرب الأنصار والخصوم معا لفكرة الشرف ومنع توسع فكرة الجامعة الإسلامية[7].

تعرض ابن مهنا في خطبه وكتاباته لقضايا عصره وأغلبها قضايا دينية تعالج الانحراف عن الشريعة الإسلامية، ونبذ الخرافات والعقائد الفاسدة، وقد كان لكلمته الحارة التي أطلقها دوي وصدى لدى تلاميذه ولدى أعدائه، وهذا ماأزعج السلطات الفرنسية، يقول عنه مالك بن نبي:"إنه من الواجب علينا أن ننوه ببعض ماكان من أمر مناجاة الشيخ (صالح بن مهنا) الضميري –إن صح التعبير– فإن صوت مناجاته كاد يوقظ أهل قسنطينة كلها حوالي سنة 1898"[8].

وكان أبو الهدى الصيادي* قد كتب "نور الشمس" نوه فيه بالأشراف فرد عليه ابن مهنا في كتاب "تنبيه المغتربين في الرد على إخوان الشياطين" وصادف ظهور هذا الكتاب ظهور طبعة أولى لرحلة الورثلاني بتعليق ابن مهنا، وقد تعرض لمسألة الأشراف العصاة[9] ، فتصدى له أيضا عاشور الخنقي في مدونته "منار الأشراف ومواليهم من الأطراف" وهو كتاب في الأنساب يقول عنه مؤلفه:"هذا موضوع لطيف ومجموع شريف يشتمل على خطبة وخاتمة وخمسة تصانيف حاصلها أربعة قصائد محرنفزات ورسالة مقدمة الشجرات في تعليم الجاهل الصريف وتنبيه الغافل الظريف وتذكير العالم العريف بفضل عصاة الأشراف ومواليهم من الأطراف وفي الرد على عدوهم الأزرق وحاسدهم الأخرق خليفة أبي جهل وابن سلول ومسيلمة الكذاب الجهول بل اليزيد المثنى الصالح بن مهنا..."[10].

لقد انتصر الشيخ عاشور الخنقي لآل البيت عصاتهم وظالميهم وحييهم وبذيهم، وبرئيهم وجريمهم، ذكيهم وغبيهم وانتصر في القصيدة الكبرى للسلطان

العثماني عبد الحميد الثاني وبقية الأشراف في إستانبول ولأبي الهدى الصيادي[11]. وبهذا تطرق كل من ابن مهنا وعاشور الخنقي إلى موضوع حساس بالنسبة للسلطات الفرنسية، يمس العالم الإسلامي والدولة العثمانية والجامعة الإسلامية التي كان يدعو لها السلطان عبد الحميد الثاني، وبهذا كان على السلطات الفرنسية أن تسكتهما. فاعتقلت في البداية عاشور الخنقي خصم ابن مهنا، ثم وصل الأمر إلى الصالح بن مهنا اعتقلته بدعوى أنه أساء إلى الدولة الفرنسية. فعزل من وظيفته ونقلت مكتبته الثمينة إلى دار العمالة للإطلاع على أفكاره. لانعرف بالضبط متى كان ذلك، ويرجح سليمان الصيد أن تكون في 1897،[12] أما جريدة الأخبار الجريدة الفرنسية شبه الرسمية فتقول أن ابن مهنا أوقفته الإدارة عن عمله في 1905[13].

ومهما يكن من أمر فقد كان يوم اعتقاله يوما مشهودا في قسنطينة حيث تجمهر الناس أمام دار العمالة، وحاول طلبته عرقلة السلطات الفرنسية، ومنعهم بالقوة من أخذ مكتبته، ولكن الشيخ طلب منهم الهدوء والصبر. وحسب جريدة الأخبار أن سبب إيقاف ابن مهنا :"لأنه انتقد انتقادا شنيعا على الحكومة الفرنسية وعلى كثير من فضلاء المسلمين" وكتبت أيضا الجريدة نفسُها أن ابن مهنا تراجع عن انتقاده للحكومة وأن موقفه يتعلق بالعقائد (الدين والأشراف) وليس بالسياسة، لذلك أعادت إليه مكتبته ووظيفته، بعد أن أبعدته عن تلاميذه وجمهوره. ويعلق أبو القاسم سعد الله على ذلك أنه من تلاعب إدارة الشؤون الأهلية بأعيان المسلمين لترويضهم[14].

لقد طلبت السلطات الفرنسية من الشيخ ابن مهنا توضيحات على القضايا التي أثارها، ومن كتاباته الأكثر إثارة هي حاشيته على رحلة الورثلاني ، فأجاب عنها في رسالة قال عنها:" هذه رسالة لطيفة تسمى إظهار الحق في الأجوبة التي أجبت بها الدولة الفرنسوية".

1- **أهمية الكتاب:**

تكشف الرسالة القضايا التي أثارها الشيخ الصالح بن مهنا، وأزعجت السلطات الفرنسية كما أزعجت أعداء الإصلاح، كما تكشف عن تكوينه وتأثره بالحركات الإصلاحية المشرقية، تبين لنا بوضوح طريقته في الإصلاح فلم يتبع العنف أو الثورة وإنما اتبع سبيل الإقناع والدليل الشرعي فتجده يستدل بالقرآن والحديث النبوي وبأقوال العلماء ويتعمد كثير على تفسير "روح البيان" لإسماعيل حقي وأقوال الفقهاء المالكية خاصة الذين تتلمذ عليهم مثل الشيخ عليش. كما تكشف لنا نظرته إلى التصوف فلم يكن معارضا للتصوف فقد كان ابن مهنا يتبع الطريقة الشاذلية وإنما كانت معارضته للغلو والانحراف. كما خاض في بعض قضايا عصره مثل تفضيل المشرق على المغرب، والحجر الصحي وغيرها...

لم يكتف ابن مهنا بالإجابة على الأسئلة بل أنه أوضح الأدلة على صحة مايقول وأعاد رده على أعدائه وتحدى أن يكون هناك معترض. يقول في نهاية الكتاب :"كل من كان بقسنطينة عالما أو مدرسا أو قاضيا أو مفتيا أو عادلا أوباش عدل أو خطيبا أو طالبا أو مقدم إخوان فليجاوبني على هذه الرسالة وليعارضها فإن لم يفعلوا ولن يفعلوا فدل عجزهم على أن جميع ما قلته حق وأن من خالفني هو الجاهل المبطل قتيل الحسد والبغض"[15].

2- **أهم القضايا التي تناولتها الرسالة:**

أ -**قضايا العلماء والقضاة** ...: جاء في جريدة الأخبار أن ابن مهنا سب المفتين والقضاة وجميع العلماء"[16] ومن خلال رده يمكننا أن نستشف المستوى الذي وصل إليه هؤلاء، وهم من موظفي الإدارة الفرنسية فبعد أن انقضى الجيل الأول من العلماء، والذي عاصر الاحتلال والذي تخرج من الزوايا والمدارس القرآنية، أصبحت

السلطات الفرنسية توظف خريجي مدارسها ومعاهدها ويبدو أن الكثير منهم لايلتزم في سلوكه بمبادئ الإسلام يقول ابن مهنا:"من كان عالما وأفتى بالحق ففتواه صحيحة مقبولة أما الفاجر والفاسق أو تارك الصلاة فلايجوز.."[17] أما بالنسبة للعدول فيقول بعد أن انتقد تصرفاتهم: "إن الدولة الفرنساوية كثر الله خيرها لم تجعل العدول ليفسدوا في دين الإسلام وفي الشريعة. إنها تحلف الموظف عند توليه ليحكم بالحق ويقوم بالقسط"[18].

معظم القضايا التي عالجها ابن مهنا يُرجع سببها إلى الجهل، ويقصد به عدم الفهم والإدراك، وقد وصل الشعب الجزائري إلى هذه النتيجة في بداية القرن العشرين بسبب السياسة التي اتخذتها الجمهورية الفرنسية الثالثة تجاه التعليم في الجزائر، يلاحظ ابن مهنا أن الطلبة لا يفهمون المنقول فضلا عن المعقول يقول:"هذا شيء شاهدته بنفسي ومارسته منذ ثلاثين سنة. فوجدت الكثير من يقرأ الواحد منهم عشرين سنة ولا يحسن الوضوء فضلا عن غيره. هذا بالنسبة للمنقول أما بالنسبة إلى المعقول فإن الواحد منهم لا يعرف معنى اسمه في مدة عمره". ويرجع سبب ذلك إلى ضعف مستوى الذين درسوهم يقول:"ونعني بهم الذين قرأوا على إبليس وتفقهوا على أشعب"[19]. ويدلل على ذلك أنهم لم يفهموا كلامه في حاشية رحلة الوتلاني، وأحيانا يضطر إلى الشرح اللغوي والإعراب ليبين أن الذين اتهموه لا يفرقون بين الفاعل والمفعول به.

ب – القضايا السياسية: لعل ما أزعج السلطات الفرنسية في كتابات الصالح بن مهنا هو كتابته في الأمور السياسية، وخاصة الدولة العثمانية. حتى وإن كان موقفه منها سلبيا فهي تثير النقاش والجدال حول مواضيع لا تريد الإدارة الفرنسية الاشتغال بها، فقد كانت نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين فترة تنافس استعماري على أملاك الدولة العثمانية، ومواجهة مشروع السلطان عبد الحميد الثاني لجمع شمل المسلمين فيما يسمى بالجامعة الإسلامية. فقد كانت السلطات الفرنسية تتخوف

تسرب هذه الحركة إلى مستعمراتها. وقد كان عاشور الخنقي خصم ابن مهنا مناصرا للدولة العثمانية وكتب القصائد في مدح السلطان العثماني، كما دافع عن أبي الهدى الصيادي نقيب الأشراف في استانبول. وإن طرحت مسألة النسب الشريف كمسألة دينية في نظر عاشور الخنقي وعند المدافعين عن الأشراف العصاة وعند ابن مهنا، فإنها في نظر السلطات الفرنسية كانت مسألة سياسية، وهي تأييد الدولة العثمانية. لذلك زج بعاشور الخنقي في السجن ونفي وحكم عليه بالإقامة الجبرية لمدة سبعة عشر عاما، وكان يعتقد أن ابن مهنا وراء ذلك. ولكن ابن مهنا رغم معارضته للأتراك وتصرفاتهم فإنه كان يحمل الفكر الإصلاحي الذي يشكل هو الآخر خطرا على الفرنسيين، ويفهم من إجابة ابن مهنا على مسألة الأتراك انه تناولها من باب جور الحكام فعندما يطرح القضية يشرح الآية الكريمة:"وأطيعوا الله ورسوله وأولي الأمر منكم"[20] ينقل تفسيرها عن إسماعيل حقي في"روح البيان" ويقول "أن أمراء الحق وولاة العدل كالخلفاء الراشدين ومن يقتدي بهم من المهتدين أما أمراء الجور فبمعزل عن استحقاق العطف على الله ورسوله، فإن اللصوص المتغلبة لأخذ أموال الناس بالقهر والغلبة " يقول وهذا كلام الشيخ إسماعيل حقي عن الأتراك يبين ظلمهم جورهم وهو من علماء الأتراك"[21] يكفي أن ابن مهنا طرح قضية كبيرة وهي ظلم وجور الحكام وإن كان كلامه عن الأتراك.

ونجده يتعرض لقضية الأتراك في عدة مواضع من الكتاب، ففي الصفحة 19 يفرق بين الأتراك وعساكر الأتراك ثم يفرق بين العسكر المسلم وغير المسلم وهم الجنود الذين كانوا يأتون بهم في العهد العثماني إلى الجزائر. يقول أنهم في نهاية العهد العثماني كان معظمهم غير مسلمين، فعاثوا في الأرض فسادا في الجزائر وفي غير الجزائر. فهل كان ابن مهنا في موقفه من الأتراك متأثرا بما عاشه في مصر، أم أنه كان ضد الأسلوب التي اتخذه السلطان عبد الحميد لجمع شمل المسلمين؟ فبإشارة الصيادي اعتمد

السلطان العثماني على الطرق الصوفية والنسب الشريف لجمع المسلمين، ويفهم من كلام عاشور الخنقي أن ابن مهنا قد يكون رد على كتاب أبي الهدى الصيادي واسمه"ضوء الشمس" واتهمه بالكفر وشنع عليه[22]. وكان أبو الهدى الصيادى قد نشر كتابه "ضوء الشمس" فأخذ عاشور الخنقي ينوه بالكتاب وبالشيخ الصيادي:

لله در أبي الهدى فيما زبر بكتاب "ضوء الشمس" في الخمس الكبر

شيخ الشريعة والطريقة الحجا صدر النقابة في بني الزهرا الخبر

ج –قضية الأشراف:

لعبت مسألة النسب الشريف أو الانتماء إلى ذرية النبي (صلى الله علية وسلم) دورا مهما في التاريخ الإسلامي وفي تاريخ الجزائر، فالانتماء الشريف معناه الجاه والمال والاحترام، لذا كثر الانتساب إلى النبي(صلى الله عليه وسلم) واتخذه الكثير من قادة المقاومة وسيلة لجمع الجزائريين ومحاربة الفرنسيين فظهر الشريف بوبغلة وشريف ورقلة والحداد... ومن جهة أخرى كانت هذه المسألة وسيلة للكسب والاستغلال، وهذا ما أثار ابن مهنا فكتب في حاشيته على رحلة الورثلاني[23]، وغيرها من الكتابات أن الشرف الحقيقي هو الأعمال الصالحة، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل أن ردود عاشور الخنقي وغيره على ابن مهنا فتح المجال لمناقشة قضية الشرفاء العصاة يقول ابن مهنا:"كنت قلت الشريف الفاسق لايعتبر ولايعظم وهذا الذي قلته موافق للكتاب والسنة"[24]أما قول الشياطين الأعداء الجهال فإنهم يقولون الشريف الفاسق يفعل مايشاء من القتل والسلب ولاحرج عليه فهم أعداء الدولة ومحاربون بهذا القول لأن هذا القول في قوة قولهم اقتلوا انهبوا الأموال"[25] ، وفي هذا إشارة إلى الدولة لمحاربتهم لأنهم خطر عليها.

لقد كان يعيب ابن مهنا على بعض شيوخ استغلالهم للطرق الصوفية وللنسب الشريف لقيادة العامة للهلاك كما يقول:"حتى أن بعضهم من جهله يهلك نفسه ويهلك العامة كما وقع ذلك من أولاد الشيخ ابن الحداد مقدم ابن عبد الرحمن عام واحد وسبعين، فأهلكوا أنفسهم وأهلكوا الحرث والنسل وشقوا عصا الطاعة وحملوا السلاح على الدولة. وهذا كله أصله شيخ الطريقة الجاهل. وشيعة ابن الحداد في قسنطينة كثيرون دمرهم الله وأخلى الأرض منهم"[26]. وهنا تطرح تساؤلات لماذا كان ابن مهنا معارضا لثورة الشيخ الحداد؟ هل لأنها ثورة الطريقة الرحمانية؟ الذين أعلنوا العداء له ومنهم عاشور الخنقي الذي قال صراحة أن شيخ زاوية الهامل محمد بن أبي القاسم الهاملي، وهو الذي حمله على نظم "منار الأشراف" وذلك عند ظهور دعوة ابن مهنا " لكي لا يقتدي به ضعفاء العقول"[27]، يقول إنه التقى بالشيخ الحداد بسجن قسنطينة وتتلمذ عليه؟ أم أن ابن مهنا كان يرى أن أسلوب الإصلاح لايكون بالقوة إنما بتنبيه الغافلين وتعليم الجاهلين؟.

د – تفضيل المشرق على المغرب:

من القضايا التي أثارها ابن مهنا تفضيل المشرق على المغرب، فقد أشار الورثلاني في رحلته أن المصريين يحتقرون المغاربة "فلا تجد أحدا من مصر إلاّ يحتقر المغاربة حتى كادوا أن يخرجوهم من الإسلام، طباعهم منافي لطباع أهل المغرب...ودأبهم التحيل لأخذ أموالنا وسلب ما عندنا... غير أن سبب ذلك أن المغاربة تشيطنوا وتمردوا على الطريق فضلوا وأضلوا..."[28] وفي هامش الرحلة توسع ابن مهنا في شرح معنى "تشيطنوا" حيث نسب إلى المغاربة كثرة تعاطي السحر وكثرة انتشاره، وقد تصدى للرد على هذه المسألة العالم المغربي المهدي الوزاني صاحب التآليف الشهيرة حيث ارتحل إلى قسنطينة وألف كتاب"السيف المسلول باليد اليمنى لقطع رأس ابن مهنا"[29]، وقد شرح ابن مهنا أسباب تفضيله المشرق على المغرب

والمقصود من المغرب، والتي تطلق على بلاد المغرب وقد تطلق على مملكة مراكش، ثم يقول:"وتفضيل المشرق على المغرب من باب تفضيل السيف على العصا وأنشدوا:

إذا أنت فضلت أمرا ذا نباهة على ناقص كان المديح من النقـص

ألم تر أن السيف ينقص قدره إذا قيل إن هذا السيف خير من العصا[30]

ليس هذا فحسب بل أنه وافق ما ذهب إليه المصريون في نظرتهم للمغاربة حيث انه شاع مثل بين المصريين يقول:"كل ما يجيء من المغرب مليح إلا ابن آدم والريح" ويقصدون بذلك ذم المغاربة وينسبونهم إلى الجهل والحماقة وسوء الخلق بحيث لا يختلف اثنان فيما ذكرت ثم يقول والمثل المذكور ليس أنا الذي قلته"[31] وهذا ديدنه يستدل بالأقوال وبين موافقته لها ثم يقول هذا ليس قولي.

ويبدو أنه يقصد من كلامه المغرب الأقصى، لأنه حين تكلم عن مسألة مدح ابن خلدون قال أنه تونسي وليس مغربي ثم يقول:"ويبعد كل البعد أن يكون مثل ابن خلدون من المغرب الأقصى...لأن تربة المغرب الأقصى بعيدة عن الذكاء..." وبهذا خاض ابن مهنا في مسألة كانت مطروحة في العالم الإسلامي وكان يغذيها الاستعمار، وهي تفضيل المشرق على المغرب، وفيها تفتيت لشمل المسلمين.

هـ –الطرق الصوفية:

لم يكن ابن مهنا ضد الطرق الصوفية فقد كان عالما صوفيا متأثرا بالطريقة الشاذلية،[32]ولكنه كان معتدلا في تصوفه، وكان يرى "أن شيخ الطريقة يشترط فيه شروطا منها العلم والعمل الديانة التامة والتقوى والخوف من الله عز وجل والاجتهاد في العبادة والزهد في الدنيا وترك الطمع في أهلها والإقبال على الآخرة والشفقة على خلق الله عموما والعلم الباطن إلى غير ذلك"[33] وقد أنكر ابن مهنا استغلال شيوخ الطرق

الصوفية والمقاديم للناس وأخذ أموالهم بغير حق واستعمال آلات اللهو، فهذا كله من الجهل بحقيقة العبادة والقرب من الله يقول:"...ويستعمل آلات اللهو واستعمالها فسق في الشريعة الإسلامية ويطوف في المداشر والقرى والبوادي ويسأل الناس وهذا طمع حرام لأنه سال التكثير وهو حرام في الشريعة.."[34].

و –مسألة المشعوذين و(الزردة):

أُعترض على ابن مهنا في حاشية رحلة الورثلاني على جملة:"فيذبحون جملة من إخوانهم البقر" قدم إعراب هذه الجملة على أن البقر مفعول به على لغة أكلوني البراغيث، وتقدير الكلام فيذبح جملة من إخوانهم البقر"[35] ليوضح الفهم اللغوي الخاطئ الذي فُهمت به الجملة، ويبين مقصده أن "بعض الأغبياء ممن انغمس في الجهل يفعلون الزردة ويمنعون الزكاة الفرض التي في حق الفقراء والمساكين ويتركون الحج مع الاستطاعة اكتفاء بالزردة". هذا يعطينا فكرة عن المستوى الذي وصل إليه المجتمع الجزائري من انحرافه عن الإسلام وكان الشيخ ابن مهنا وغيره من العلماء يسعون لتعليم الجزائريين، وهذا ما لم يكن يعجب السلطات الفرنسية التي كانت تفضل بقاء الجزائريين جهلاء حتى يسهل السيطرة عليهم.

الخاتمة

نخلص من هذا أنه بتناولنا لبعض القضايا التي أجاب عنها ابن مهنا القسنطيني في كتيب "رسالة إظهار الحق" أعطانا فكرة عن المستوى الفكري والديني للمجتمع الجزائري في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، هذه الوضعية التي ساهم الاستعمار الفرنسي في الوصول إليها، وكان يشجع على بقائها، في حين كانت هناك صرخات إصلاحية فردية هنا وهناك في الجزائر، ولكن تدخل السلطات الفرنسية دائما أبقى على الهدوء والنوم العميق. ولم تشتد الحركة الإصلاحية إلاّ بعد الحرب

الكبرى وعودة عدد كبير من علماء الجزائر وخاصة الشيخ ابن باديس الذي أكمل مسيرة ابن مهنا والمجاوي والونيسي وغيرهم.

الصورة الأولى والأخيرة من النسخة المعتمدة في هذا المقال

وبعد فهذه رسالة لطيفة سمتها اظهار الحق في الاجوبة التي اجبت بها الدولة وبالله التوفيق والهداية الى اقوم طريق

مسئلة في المفتي

الجواب

اقول المفتي هو المخبر بالحكم الشرعي من غير الزام فيشمل هذا التعريف المنصب وغير المنصب في جميع اقطار الارض فليس الكلام الذي وقع في الحاشية في مفتي مخصوص ولا في شخص معين فمن كان عالما وافتى بالحق فيفتواه صحيحة مقبولة ومن كان جاهلا فيفتواه باطلة مردودة وكذا من كان عالما وافتى بالباطل او بالقول

الضعيف فيفتواه باطلة مردودة كذا في الشريعة الاسلامية وبعض الاغبياء ظنوا بجهلهم ان الكلام في مفتي مخصوص فقاسوا وفعدوا وابرقوا وارعدوا حتى ظن الجهال مثلهم ان السيل بلغ الربا وليس بصائري طنين الذباب شعر

اذا لم يكن للمرء عين صحيحة
فلا غروان يرتاب والصبح مسفر

مسئلة في المفتي ايضا

الجواب

كالذي قبله ونزيده ايضاحا وهو ان المفتي الجاهل او الفاسق بترك الصلاة مثلا يصدق عليه انه لا نصيب له في الاسلام وذلك ان كثيرا من العلماء والائمة والصحابة والتابعين يقولون ان تارك الصلاة ليس بمسلم وقد رأيت من يفتي الناس وهو تارك للصلاة المفروضة ويزعم انه فقيه وفي الحديث ازفة الدين ثلاثة فقيه فاجر وامام جائر ومجتهد جاهل ولا يجور اعظم من ترك الصلاة وفي الحديث بين الرجل والكفر والشرك ترك الصلاة ومما استدل به على كفر تارك الصلاة قوله تعالى واقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين كما في القسطلاني على البخاري

غيره

لو كنت اجهل ما علمت لسرنى
جهلي كما قد ساءنى ما اعلم
كالصعو يرتع فى الرياض وانما
حبس الهزار لانه يتكلم

خاتمة

قال القطب الدردير ومن الناس من يزعم انه سالك طريق اهل الله تعالى فيتزيا بزيهم ويتكلم بما يوهم الناس انه منهم والحال انه بطال يملأ بطنه من الطعام سواء كان حلالا او حراما وليلة من المنام ويثب على الدنيا وثوب الاسد على الفريسة وربما جهل نفسه شيخا وله اتباعا يصطادون له بشرك مشيخته فاذورات الحطام الفانى ويزعمون انهم على شيء اولئك هم الكاذبون وقد اشار لهم العارف بالله تعالى سيدى عمر بن الفارض رضي الله بقوله

رضوا بالامانى وابتلوا بخصوصهم
وخاضوا بحار الحب دعوى وما ابتلوا
فهم فى السير لم يبرحوا من مكانهم
وما ظعنوا فى السير عنه وقد كلوا

بل تاخروا ورجعوا القهقرى لانهم تبعوا هوى انفسهم والشيطان يقودهم الى كل ما يحبه منهم كما قال

وعن مذهبى لما استحبوا العمى على الهدى
حسدا من عند انفسهم ضلوا

حتى صار من اخلاقهم ان من تصدق عليهم بصدقة او اكرمهم بكرامة اتخذوا ذلك عادة وطلبوا بها من بعد معهم كالاحسان حتى يضيفوا عليه المسالك ويقولون اعطنا عادتنا ولا تشوش عليك فيدعون الناس انهم ارباب احوال وان الله تعالى يصدقهم فى المقال كلا ما هذه طريقة الفقراء اهل الله انما طريقتهم التواضع ولانكسار وحب الخمول والعفة والزهد والورع والايثار والتوكل واما هؤلاء فهم اشرار الناس ياكلون اموال الناس بالباطل ويدعون المراتب العلية وهم فى الدركات السفلية وقد كثروا فى هذا الزمان حتى ملؤا طباق الارض فى كل قطر ومكان نعوذ بالله منهم قال استاذنا السيد البكرى فى التبة التصوف

الهوامش:

1- الحسين بن محمد الورثلاني ، نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والآثار، المشهورة بالرحلة الورثلاني ة، تعليقات ابن مهنا القسنطيني، قام على خدمتها محفوظ بوكراع وعمار بسطة، ج1، دار المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، الجزائر،2011، ص38.

2- سليمان الصيد، صالح بن مهنا القسنطيني حياته وتراثه، ط.1، دار البعث ، قسنطينة، 1983، ص 27

3- المرجع نفسه، صص39،40

4- نفسه، صص، 50، 56.

5- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ط.1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998، ج7ص214.

6- الصالح بن مهنا، رسالة لطيفة تسمى إظهار الحق، مطبعة فونتانة، الجزائر، 1904، ص.17

7- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي المرجع السابق،ج 8ص 118.

8- مالك بن نبي، شروط النهضة، تر:عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين، ط.4، دار الفكر، الجزائر، دار الفكر، دمشق،1987 ، ص25.

-*- أبو الهدى صاحب كتاب "ضوء الشمس" يقول عنه بعض الكتاب ومنهم المهدي البوعبدلي أنه من علماء القطاع القسنطيني يدعى أحمد بن دادا المشهور بأبي الهدى تخرج من القرويين ألف رسالة سماها "ضوء الشمس" نوه فيها بالأشراف، فلما اطلع عليها ابن مهنا رد على مبالغاته، لكن سليمان الصيد وسعد الله قالا أن أبا الهدى صاحب "ضوء الشمس " هو أبو الهدى الصيادي وهو نقيب الأشراف في استانبول والصدر الأعظم، والراجح القول الأخير، يفهم ذلك من أبيات عاشور الخنقي، يراجع: المهدي البوعبدلي، الأعمال الكاملة، قسم التراجم، جمع وإعداد عبد الرحمن دويب، ط1، عالم المعرفة، الجزائر، 2013، ص96. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي مرجع سابق، ج7ص233. سليمان الصيد، مرجع سابق، ص111.

9- المهدي البوعبدلي، الأعمال الكاملة، قسم التراجم، جمع وإعداد عبد الرحمن دويب، ط.1، عالم المعرفة، الجزائر، 2013، ص96.

10- سليمان الصيد، المرجع السابق، ص107.

11- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي مرجع سابق، ج7ص233.

12- سليمان الصيد، صالح بن مهنا القسنطيني حياته وتراثه، مرجع سابق، ص 17.

13- القسم العربي جريدة الأخبار، 16 أفريل 1905، نقلا عن أبي القاسم سعد الله مرجع سابق، ج119/8.

14- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي مرجع سابق، ج7.ص 332.

15- ابن مهنا رسالة لطيفة تسمى إظهار الحق، مصدر سابق، ص40.

16- جريدة الأخبار، العدد 16 أفريل 1905، نقلا عن أبي القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي مرجع سابق، ج7.ص.332

17- ابن مهنا رسالة لطيفة تسمى إظهار الحق، مصدر سابق، ص.3

18- ابن مهنا رسالة لطيفة تسمى إظهار الحق، المصدر نفسه، ص.4

19- ابن مهنا رسالة لطيفة تسمى إظهار الحق، المصدر نفسه، ص.16

20- الآية 59 من سورة النساء

21- ابن مهنا رسالة لطيفة تسمى إظهار الحق، مصدر سابق، ص.9.

22- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي مرجع سابق، ج.7، ص.333

23- الورثلاني ، الرحلة، مصدر سابق، ج1، ص.ص.53، 247

24- ابن مهنا ، رسالة لطيفة تسمى إظهار الحق، مصدر سابق، ص.21

25- ابن مهنا، ابن مهنا رسالة لطيفة تسمى إظهار الحق، المصدر نفسه، ص.26

26- ابن مهنا ، رسالة لطيفة تسمى إظهار الحق، المصدر سابق، ص.36

27- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق.ج8، ص. 212

28- الورثلاني ، الرحلة، مصدر سابق، ج3، ص.157

29- المهدي البوعبدلي، الأعمال الكاملة، قسم التراجم، مرجع سابق، ص.13

30- ابن مهنا، رسالة لطيفة...، مصدر سابق، ص.ص. 14-15

31- ابن مهنا رسالة لطيفة تسمى إظهار الحق، المصدر نفسه، ص.ص.15-16

32- سليمان الصيد، صالح بن مهنا القسنطيني حياته وتراثه، مرجع سابق، ص. 72

33- ابن مهنا رسالة لطيفة تسمى إظهار الحق، مصدر سابق، ص.29

34- ابن مهنا رسالة لطيفة تسمى إظهار الحق، مصدر سابق، ص.10

35- ابن مهنا رسالة لطيفة تسمى إظهار الحق، المصدر نفسه، ص.12